

# الباحث فتحي المسكيني: لا معنى لأي نقاش بشأن توبة الإرهابيين

## تملق التراث لم يعد يليق بالأجيال الجديدة



يستخدم النقاش داخل المجتمعات التي شملتها الظاهرة الإرهابية حول عودة الإرهابيين من بؤر التوتر، فيما يشير إلى تبني جهات داخلية تنتمي إلى تيارات دينية لأطروحات تسمح بالتساهل مع هذه العناصر المتشددة وتجد لهم المبررات والمسوغات لإعادة إدماجهم داخل المجتمع، متجاهلة ما يمثلونه من خطر وتهديد للسلم والأمن المجتمعي. وفي سياق مشاركاته المتواصلة في الجدل العام حول القضايا الإشكالية يطرح المفكر التونسي فتحي المسكيني في كتابه "الإيمان الحر أو ما بعد الملة" رؤيته الناقد للمغالطات الفقهية التي تخلق بين فهم توبة المؤمن في الفقه الديني وتوبة الإرهابيين في قانون الدولة الحديثة، منتقدا الدفاع السياسي عن المتشددين باعتباره تبريرا للقتل باسم الدين، مؤكدا أنه لا معنى لأي نقاش حول توبة الإرهابيين.

محمد الحماصيني  
كاتب مصري

التنظيمات المتطرفة تستعصي عن التوبة



فتحي المسكيني

**قتل الأبرياء ليس زلة؛ فهو ليس فعلا من الصغائر يفعله الفاعل من غير قصد، بل هو معصية**

ويرى سياسة الطاعة تكمن في ربط الإيمان بشروط غريبة عنه إلى حد صياغة مبدأ خطير جداً لسياسة التكفير، مفاده أن «من ترك شيئاً من الطاعات فعلاً كان أو قولاً خرج من الإيمان» نفسه. إن الخروج من الإيمان هو التهديد الفقهي الرسمي لكل إيمان حر في أفق الملة. ومن المؤسف أن المعتزلة (أو دعاة العقل في ثقافة الملة) لم ينجحوا في أكثر من تحقيق مكاسب خطابية حول هذه المسألة أثاروا إليها بعبارة «المنزلة بين المنزلتين» أن من خرج من الإيمان «لم يدخل في الكفر» بل وقع في مرتبة بينهما، نفسه.

ويشدد المسكيني على أن ما يهم هذه الأجيال الجديدة ليس الفرق بين الإيمان الموجب «الطاعة» والإيمان المنفي «المعصية»، أو بين الإيمان الذي هو «مجان» أو بين «الإيمان المنجى» والإيمان غير المنجى من النار، بل مدى علاقة الإيمان بالحرية، ولاسيما الحرية الشخصية.

قال القاضي الأمدي «التكليف بالإيمان تكليف بالنظر الموصل إليه وهو فعل اختياري» نفسه. الدعوة إلى النظر في حكمة الخلق ليست من جنس سياسة طاعة، والتكليف بها هو نمط الحرية الموجبة في أفق الإيمان؛ ذلك أن التصديق هو كما لدى الإشعري «كلام نفسي وليس طاعة لأحد. وهو فعل كلامي إنشائي من نوع الفعل «المؤمن-في-القول» كما صار يقول التداوليون. وأكثر النتائج طرفة، هنا، هو اعتبار التصديق «كلام النفس»، فم اعتبار كلام النفس هذا «عقد الإيمان» نفسه. ومنه أن «التصديق هو نسبة الصدق بالقلب أو اللسان إلى القائل» نفسه. الإيمان، إذاً، فعل كلامي وليس موقفاً سياسياً. وهذا بالتحديد ما طرح مسألة التغيرات مع معنى «الإسلام».

ويمثل الإرهاب، من وجهة نظر الفيلسوف التونسي، نوعاً من العدمية الخاصة بالمجتمعات التي لا تزال تستمد من الدين شطراً أخلاقياً حاسماً من مشروعيتها العميقة. ومن ثم إن فصل الدين عن الإرهاب هو الشكل الوحيد من تحرير التوبة من غير المؤمنين بها. لا معنى لأي نقاش حول توبة الإرهابيين. لا يتوب إلا المؤمنون. موضوع الإرهاب هو قتل الأبرياء. أما الإيمان فهو براءة الله في أفق الإنسانية. وحده الله إذا يتوب عن المؤمنين.

ويذهب المسكيني إلى اعتبار مصطلح «الإسلام السياسي» مفهوماً زائفاً، فهو حشو خطابي وعلينا الكف عن استعماله لأنه يوحى للسامع بوجود إسلام غير سياسي. وهذا ممتنع سلفاً، إذ ليست السياسة غير ألية الطاعة والانقياد تحت سلطة ما مهما كان نوعها. ثم لماذا تم حصر التعريف الفقهي في شرط واحد هو الطاعة أو الانقياد؛ ما الذي جعل الفقهاء يختارون دلالة الإسلام المتشعبة في معنى الطاعة أو الانقياد؛ أي في نوع من الحرية السالبة؟

ويضيف المسكيني، إذا كان الجذر الفقهي قادراً على اختراع ادعاءات الصلاحية الكافية للدفاع عن حقيقة الإيمان الحر، فلماذا عرّف الفقهاء عنه، وعوضوه بانماط من الإيمان لا تختلف عن «الإسلام» أي عن سياسات الطاعة والانقياد؛ لماذا تمت إزاحة الإيمان من «المعرفة» إلى «الطاعة»؟ ويشير «بيدو» الإمام بمبابة واقعة روية خطيرة جداً، لا يجوز للحاكم أن يتركها من دون قيد فقهي. وكل تاريخ الملة هو تاريخ تقنيات السيطرة على فعل الإيمان وتوجيهه في سياسات الطاعة.

المتدينين تقع خارج مفردات النقاش الحديث عن «النقد الذاتي»، أو «مراجعة المواقف». هي اعتراف بأن القتل مثلاً «معصية من حيث هي معصية». وهذا تقرير مقولي يتعلق بمقولة التوبة، كونها موقفاً تأويلياً يفهم المعصية «بوصفها» معصية، وليس بوصفها شيئاً آخر لا يدخل في تعريفها الشرعي. بذلك يتوضح أن الندم ليس توبة إلا استثنائياً؛ أي كنوع من الدعوة إلى التوبة، وهي دعوة لا يمكن أن تتم إلا بين «متدينين» داخل الجماعة الدينية نفسها، وليس بين «جهاديين» و«مجتمع مدني» حديث. ويواصل المسكيني تساؤلاته، كيف يمكن الجمع في مستوى حاجتي واحد بين توبة المؤمنين في فقه الملة وتوبة الإرهابيين في قانون الدولة الحديثة؟ إذ يقدر ما تتبين طرافة مفهوم التوبة في فقه الملة؛ حيث إن التوبة هي صفة عامة للمؤمنين، برعنا الدفاع السياسي عن توبة الإرهابيين، وكان مفهوم التوبة يمكن أن يخرج من عقيدة الإرهاب الحديثة.

## محاكم سرية في مخيم الهول لمعاينة النسوة اللاتي يحاولن الانحراف عن داعش

وباتت هذه التنظيمات منذ فترات تعمل على تشريك الإنسان ضمن تشكيلاتها وتوكل إليهم المهام، ليخرج التطرف من دائرة الجنس الذكري ويتحول إلى فكر متنقل يتشاركه الرجال والنساء على حد سواء. ويرى متابعون أنه لا يجب الاكتفاء بالرد على المقولات الأساسية للتطرف العنيف وأخذ الموقف الدفاعي في الرد على ادعاءات التنظيمات المتطرفة المبنية على أساس ديني، بل يستوجب الأمر تفكيك خطاب التطرف وتجريده من أسانيد الدينية المزعومة ونبذها في المجتمع، لإحراق الأوراق التي تلتب بها التنظيمات المتطرفة، كما يجب تعزيز ثقافة السلم في المجتمعات الإسلامية، وأن يخضع رجال الدين المعتدلون موقفاً صحيحاً وصرحاً في تنفيذ القضايا الدينية التي تحاول التنظيمات المتطرفة استغلالها لصالحها.

حديثاً معهم؛ ويؤكد أن شرط كل نقاش عن التوبة مع الجهادي المعاصر؛ «أي القاتل باسم الدين راهناً» هو أن نقنعه أولاً بأن القتل «معصية». فإذا لم يقتنع القاتل بأن القتل هو معصية؛ «أي معصية من حيث ماهيتها» فإن كل حديث عن التوبة هو شجار أخلاقي خارج قواعده. حتى لو أنه أقر بأن فعله معصية يجب أن يصاحب ذلك الإقرار «عزم أن لا يعود إليها» إذا قدر عليها.

وهو يعتبر أن العزم قرار، لكن مضمونه ليس الفعل بل تعطيل القدرة على الفعل؛ ذلك يعني أن العاجز أو غير المتمكن من «القتل» لا يعد موضوعاً للتوبة. ومن يترك ما لا يستطيع ليس تائباً. وحده القادر على القتل يمكنه أن يعزم على عدم العودة وهكذا، لا تنتج التوبة عن العجز أو الضعف. فالتوبة ليست فشلاً إجرائياً، بل هي قرار شرعي، حيث لا معنى لأي عامل نفسي «مثل صداد شارب الخمر أو خفة عقله» أو اجتماعي «الإخلال بالمال»، أو أخلاقي «العرض». ومن ثم إن توبة

شيئاً يُذكر؛ علينا أن نرتاب من أي حرية غير حرة، معني حرية لا يمكن لأي جهة أن تستعملها بوصفها أداة لشيء آخر. ويحذر المفكر التونسي من الذين يعولون على أجوبة أخلاقية عن أسئلة التفكير. ويشير إلى أن «تملق الأمة هو فن العديد من قراء التراث؛ مثله مثل تملق الحداثة أو تملق الليبرالية...». فتتملق الهوية لم يعد يليق بالأرواح الحرة. معتبراً أن كل تفكير في الاختلاف «السهوي» من الصعب ألا ينقلب إلى مجرد ألق أسلوبي أو تنوعات جمالية على مشكل يقع خارج أفق الفن. وعلينا أن نحترس من الخلط بين الاختلاف الجمالي والخلاف الفقهي.

وفي سياق الجدل الدائر في تونس والعديد من البلدان الأوروبية، حول عودة الإرهابيين من مناطق التوتر، يطرح المسكيني تساؤلات جد مهمة وخطيرة من بينها، ما هي صلاحية مطالبة «الجهاديين» بالتوبة باسم السلم الاجتماعية مثلاً؛ أو باسم الدساتير الوطنية؛ ألا يعد ذلك مهاترة ما بعد

يؤكد المفكر التونسي، المتخصص في الفلسفة فتحي المسكيني، أن قتل الأبرياء ليس زلة؛ أي ليس فعلاً من الصغائر يفعلها الفاعل من غير قصد، بل هو معصية؛ أي فعل حرام يقصد إلى نفسه مع العلم بجرمته. ويقول «إن المؤمن لو كان يعتقد أن القتل ليس معصية بل هو جهاد صراح، فهو في حل من أي توبة، ومن ثم إن النقاش معه على أساس التوبة هو مغالطة فقهية لغير الناطقين بها. لا يندم المرء على المباح أو على الطاعة لأولي الأمر؛ هذا يعني أن الإفتاء بالقتل يجعل المؤمن في حل من التوبة. وفجأة يتعدى الإشكال، لأن التكليف قد غير من وجهه. لا يندم، إذاً، إلا من كان يشعر أن فعله معصية دينية وليس مجرد زلة شخصية». ويتناول المسكيني في كتابه «الإيمان الحر أو ما بعد الملة»، الصادر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، مفهوم الإيمان الحر بوصفه ورشة تأويلية وليس عقيدة جاهزة. ويقول «من دون أن نحتاج إلى تنصيب أي عدو افتراضي من أجل التفكير ضده، حتى نشعر باننا حققنا

استعصاء التوبة عند المنتمين إلى التنظيمات المتطرفة دليل واضح على أن تفكيك الظاهرة الإرهابية لا يرتبط فقط بهزمها على الأرض وإنما يتعلق بدرجة أولى بخوض حرب أفكار ضدها.

بيروت - قتلت امرأتان وجرح سبعة أشخاص، الاثنين، في حادث طعن وأعمال شغب داخل مخيم الهول شمال شرق سوريا الذي يستقبل الآلاف من الأجانب من تنظيم الدولة الإسلامية. في تأكيد لزيادة الحوادث المرتبطة التي شهدتها الأشهر الأخيرة. وأوردت وكالة أنباء هاوار الكردية المحلية أن أجنبيات «شككن محاكم سرية لبعض النساء الأخريات بتهمة ابتعادهن عن فكر داعش المتطرف». وقال المصدر نفسه «المرأة التي قتلت بيد نساء داعش بالسكين بعد محاكمتها من قبلهن، والجرحى أصيبوا بعد مهاجمتهم قوات الأمن الداخلي الكردية «الإسايش» على إثر رغبة الأخيرة بالتدخل لإنقاذ حياة المرأة التي كانت تتم محاكمتها». وتؤكد هذه الحادثة مدى تغلغل الفكر المتطرف عند المنتمين إلى التنظيم المتشدد، والذي ينبثق من تربة الانغلاق والتعصب والهوية المازومة والخطابات الدينية التقليدية التي تمنع أصحابها من رؤية متسامحة مع الآخر. وتكشف أن أفكار التنظيم المتشدد ما زالت تسيطر على مؤيديه، رغم

تفكيره وترجع نفوذه في العراق وسوريا. ويصعب على التنظيمات، التي اعتادت على الغلو والتشدد في مواقفها ورؤاها، القبول بالأطروحات المختلفة والأراء غير المتوافقة معها. وهي التي تسترت بغطاء الدين لتحقيق أجدتها في المناطق التي سيطرت عليها، واستخدمت الخطاب الديني لجذب المزيد من الأفراد إليها، مدعية نصرة المسلمين والدفاع عن الإسلام. ويفرض هذا السلوك المتشدد لنساء داعش تساؤلات عديدة حول جدوى السياسات الأمنية والعسكرية التي تتبناها دول عدة بعنوان مكافحة الإرهاب والقبول بعودة المقاتلين. وكادت بعض المقاربات تقول بإمكانية استعادة هذه العناصر من بؤر التوتر تحت مسمى قانون التوبة دون التنبيه الحقيقي لما يشكله أفراد الجماعات المتطرفة من خطر على الأمن والسلم المجتمعي. ويعتبر مراقبون أن ما حدث في مخيم الهول شمال شرق سوريا من تبادل إطلاق نار ليس مجرد واقعة عسكرية، بل هو حدث يتطلب التمعن يمكن أن نستخرج منه الكثير من